المحافظة على الثوابت الشرعية في أثناء تكوين الرؤية التنموية للثقافة الإسلامية

سوسن عبد الرحيم سليمان محمد (*)

"من الحقائق الأولية أن الحياة متحركة ومتطورة، دائمة الشباب، مستمرة النمو، تنتقل من طور إلى طور ... لا تعرف الوقوف ولا الركود ... ولا يسايرها في رحلتها الطويلة المتواصلة إلا دين حافل بالحركة والنشاط، لا يتخلف عن ركب الحياة، ولا يعجز عن مسايرته وزمالته، ولا تقصر عنه خطواته ... وذلك شأن الإسلام، فإنه وإن كان مؤسسًا على عقائد ثابتة وحقائق خالدة، ذاخرًا بالحياة، حافلًا بالنشاط، له من الحيوية معينًا لا ينضب ... صالح لكل زمان ومكان"، (١) { وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ }؛ (٢) "فالإسلام هو الدستور الكامل، والمنهج الذي استهدف إقامة حياة إنسانية رفيعة، يتحرر فيها العقل والضمير، وتستقل فيها الإرادة والتفكير، ويظهر فيها كل فرد بأنه سيد نفسه، ومالك أمره، وأنه لا سلطان لأحد عليه سوى سلطان الحق -الذي يعلو ولا يعلى عليه-. وهو الذي أهاب بالناس أن يفتحوا عقولهم؛ ليعرفوا آيات الله في الكون، وسننه في الخلق، وحكمته في الطبيعة"؛(٣) { يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ } ؛ (٤) ف"بالإسلام قد بدأ عهد جديد يتغلغل إلى أبعد مدى في أمور المعاملات، فقد أعطاهم منهجًا محكمًا، قادرًا على مواجهة متغيرات العصور والبيئات، أضاء العالم كله ألف سنة كاملة، وأقام حضارة الرحمة والإخاء

(*) هذا البحث من رسالة الدكتوراه الخاصة بالباحثة، وهي بعنوان: [التنمية المجتمعية في ضوء القرآن الكريم "دراسة موضوعية"] تحت إشراف أ.د. إسماعيل فهمي عبد اللاه – كلية الآداب – جامعة سوهاج & د. شادية أحمد مصطفى – كلية الآداب – جامعة سوهاج.

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن الحسني الندوي، ص: ١٢.

(٢) سورة النحل: ٨٩.

(٣) إسلامنا، سيد سابق، ص: ٥.

(٤) سورة المائدة: ١٦.

البشري، وقدم منهجًا تجريبيًا ومفاهيم وقيم لم تستطع البشرية وحدها أن تصل بعد إلى عشر معشارها".[1] {وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} ،[2] {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} ،[3] ويرجع ذلك كله إلى طبيعة الدين الإسلامي وثوابته التي تميزه عن سائر الأيديولوجيات والمذاهب البشرية والأديان الوضعية. وقد أثبتت التجربة العملية فعالية الرؤية الإسلامية -بمبادئها وثوابتها المتميزة- في تحقيق نهضة اجتماعية شاملة ومتكاملة لا مثيل لها ولم يتحقق نظيرها في التاريخ، قال الله ﷻ -ممتنًا على العرب بإرسال النبي ﷺ إليهم، يعرفهم بربهم، ويتلوا عليهم رسالته إليهم؛ ليطهر قلوبهم، ويزكي نفوسهم وسلوكهم، ويستنقذهم من الضلال، ويهديهم إلى الرشاد، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، فيقول: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} ،[4] وقال: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.[5]

وإذا كانت التنمية الثقافية المنشودة هي تنمية إسلامية؛ فحينئذ ينبغي مراعة الطابع الإسلامي بالمحافظة على الثوابت الشرعية أثناء تكوين تلك التنمية المقصودة، والمحافظة على الهوية الإسلامية، والتصدي للغزو الثقافي الوافد، الذي يستهدف فرض ثقافات تتنافى وتتعارض مع الثقافة الإسلامية من خلال فكرة العولمة؛ "فمنذ نهاية القرن الثامن عشر، ومع انتشار الإنسان الغربي التدريجي في العالم من خلال التشكيل الاستعماري الغربي، وقيامه بتدويل نماذجه الحضارية والمعرفية، بدأ أيضا ما يسمى بالغزو الثقافي، وهو محاولة الإنسان الغربي فرض نماذجه هذه على

(١) الطريق إلى الأصالة والخروج من التبعية، د. أنور الجندي، ص: ٨.
(٢) سورة الأنفال: ٢٦.
(٣) سورة الأنفال: ٦٣.
(٤) سورة آل عمران: ١٦٤.
(٥) سورة آل عمران: ١٠٣.

شعوب العالم . وهذه النماذج التي أثبتت نفعها في العالم الغربي في المجالات الاقتصادية والسياسية، لها أيضا جوانبها المظلمة والمدمرة في مجالات أخرى، وهذه النماذج ليس لها بالضرورة علاقة قوية بواقع شعوب العالم غير الغربي (أي الغالبية العظمى للشعوب الأرض)، وهي لهذا السبب ليست قادرة على التفاعل مع هذا الواقع أو على الإسهام في تفسيره أو تغييره، بل ويؤدي تبنيها أحيانا إلى تدميره"، [١] فلكل أمة كيان مستقل تبلور خلال قرون من الزمان من خلال منطلقات وأسس ومبادئ متوافقة مع طبيعة هذه الأمة من كافة الجوانب، وباختلال جانب من هذه الجوانب - كالجانب الثقافي في هذا الصدد- فإن انحلال الأمة وتفككها أمر لا مناص منه، وتصبح هذه الأمة جزء من النموذج الثقافي للأمة الأخرى صاحبة النفوذ الثقافي والحضاري ما لم تعود إلى ثقافتها ونموذجها الحضاري الذي تكوَّن متوافقًا مع طبيعتها الخاصة.

والأمة الإسلامية لم يكن لها حضارة أو حتى مجرد كيان قبل أن يمن الله ٍ عليها بالإسلام؛ فيستنقذها من الجهل والضلال، ويخرجها من الظلمات إلى النور، فعليها أن تستسلم لشعائره، وتنقاد لأوامره، وتستمسك بعراه، ولا تتخطى حدوده. وإذا كان الإسلام يعني "الاستسلام والانقياد والخضوع"[٢] فينبغي التمسك والخضوع التام لقواعده وثوابته الشرعية، فلا يستعير من الثقافات الأخرى ما يتنافى مع ما هو معلوم من الدين بالضرورة، ولا يتلقى عن الآخر من العلوم والمعارف ما يتنافى مع عقيدته وأصول دينه وثقافته الإسلامية، ف"ينبغي أن يُعلم أن المسلم لا يملك أن يتلقى في أمر يختص بحقائق العقيدة، أو التصور العام للوجود، أو يختص بالعبادة، أو يختص بالخُلق والسلوك، والقيم والموازين، أو يختص بالمبادئ والأصول في النظام السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، أو يختص بتفسير بواعث النشاط الإنساني وبحركة التاريخ الإنساني إلا من ذلك المصدر الرباني، ولا

(١) إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، أ.د. عبد الوهاب المسيري، ص: ٣.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ج: ٨، ص: ٢٨٠.

يتلقى في هذا كله إلا عن مسلم يثق في دينه وتقواه ومزاولته لعقيدته في واقع الحياة.

ولكن المسلم يملك أن يتلقى في العلوم البحتة كالكيمياء والطبيعة والأحياء والفلك والطب والصناعة والزراعة وطرق الإدارة -من الناحية الفنية الإدارية البحتة- وطرق العمل الفنية، وطرق الحرب والقتال -من الجانب الفني- إلى آخر ما يشبه هذا النشاط، يملك أن يتلقى في هذا كله عن المسلم وغير المسلم".[1]

ومن أهم الثوابت الشرعية التي ينبغي المحافظة عليها أثناء تكوين الرؤية التنموية للثقافة الإسلامية:

١ - اعتبار محورية عقيدة التوحيد وأن الله ذو طبيعة مفارقة للكون، وأنه ليس حالًا فيه أو متحدًا به، {قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤}.[2]

والتوحيد من أخص خصائص الثقافة الإسلامية، ومن أبرز معالمها، كما أنه من أهم ما يكسب الأمة الإسلامية صفتها الذاتية، ويوحدها حول غاية وهدف ووجهة واحدة، كما أنه يوحدها حول مصدر واحد للتشريع، بالإضافة إلى العديد من الفوائد الدنيوية التي تجنيها الأمة الإسلامية لعقيدة التوحيد، والتي سبق العرض لبعض منها في الفصل الثاني من هذه الدراسة، كما أنها من أهم أسباب تمكين الله للناس في الأرض، قال تعالى: {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ}،[3] وثوابها في الآخرة أجل وأعظم.

٢ - اعتبار الوحي الصحيح -بصورتيه الكتاب والسنة- مصدر صحيح للمعرفة، ومصدرًا وحيدًا للتشريع: فالقرآن "هو كتاب مبارك، خلق من

(١) عجز الثقات، د. محمد موسى الشريف، ص: ٧٧.

(٢) سورة الإخلاص: ١ - ٤.

(٣) سورة النور: ٥٥.

الهباء أمة ضخمة، واستبقى على القرون جيلًا من الناس ما كانوا ليدخلوا التاريخ أبدًا لولا القرآن، وليس فضل القرآن على العرب وحدهم؛ فإن العالم أجمع جنى أجمل الثمرات من هذا الكتاب العظيم؛ ذلك أن تعاليمه أعادت بناء الإنسانية من جديد، وأزالت ما خلفته القرون الأولى من عوج في عقلها وفؤادها، والوجهة التي ساق إليها العالم منذ ظهور القرآن هي التي أنشأت المنطق الحديث، وحررت أساليب المعرفة وأمكنت من السيطرة على الكون، ولولا ما شرع القرآن من فروق النظر الصحيح والعمل الطيب؛ لظل العالم يتدحرج مع خرافات الرومان والفرس واليونان حتى يبلغ الحضيض". (١)

" فالثقافة الإسلامية تعتمد على كتاب الله الموحى إلى رسوله ‘، وهي محصورة في هذا المصدر، بعيدة كل البعد عن الفكر الفلسفي الإنساني. وإن هذا المصدر الرباني يتسم بسمة الخلود والصدق والصحة، ذلك لأن الكتب السماوية الأخرى قد دخلها التحريف، وأدخل عليها شروح وتفسيرات وتصورات وزيادات ومعلومات بشرية، أدمجت في صلبها، فبدلت طبيعتها الربانية، وبقي الإسلام وحده محفوظ الأصل، قال الله تعالى: { إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ }، (٢) **وهذا هو السر الذي يعطي الثقافة الإسلامية قيمة التفرد والخلود"** (٣)

والسنة هي المصدر الثاني للتشريع، "والمقصود بها شرعًا ما أُثِر عنه‘ من قول، أو فعل، أو تقرير". (٤)

ولا يمكن العمل بالقرآن وتطبيقه بدونها، "إذ جاءت مفصلة لمجمله، وموضحة لمشكله، ومخصصة لعامه، ومقيدة لمطلقه؛ لذلك عظمت

(١) الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي، ص: ٦٢.

(٢) سورة الحجر: ٩.

(٣) أضواء على الثقافة الإسلامية، د.نادية شريف العمري، ص: ١٩.

(٤) التهذيب في فقه الإمام الشافعي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، ج: ١، ص: ٢٣.

منزلتها، فهي المصدر الثاني للتشريع، ولا يمكن فهم الإسلام بدونها". (١) قال تعالى في شأنها: {وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }. (٢)

"ثم إن حياة محمد ، هي التطبيق العملي لتعاليم القرآن الكريم، كما أن القرآن هو الجانب العلمي من هذه الرسالة الشاملة". (٣) فعن السيدة عائشة ~ أنها قالت -عندما سئلت عن خلق النبي -: [كان خلقه القرآن]. (٤)

ف"القرآن والسنة متلازمان يكمل بعضهما الآخر، فالقرآن كلام الله ﷻ بلغه للخلق رسول الله ، والسنة هدي الرسول الكريم البشير النذير الذي لا ينطق عن الهوى، وفيها تفصيل وتحديد لبعض العبادات التي وردت في القرآن الكريم بصورة مجملة، وجاءت السنة بتفصيلها وتحديد معالمها كالصلاة مثلًا". (٥)

"وذلك لأنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسوله ، وحتم على الناس اتباع أمره فلا يجوز أن يقال لقول: هو فرض إلا لكتاب الله، ثم سنة رسوله ... فسنة رسول الله ، مبينة عن الله معنى ما أراد دليله على خاصه وعامه، ولم يجعل الله هذا لأحد من خلقه غير رسوله ". (٦) قال تعالى: { وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ } . (٧)

---

(١) الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، المعروف بابن سعد، ص: ١٢.

(٢) سورة النحل: ٤٤.

(٣) الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي، ص: ٦٧.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) ظاهرة رفض السنة وعدم الاحتجاج بها: صالح أحمد رضا، ص: ٨.

(٦) السنة، أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي، ج: ١، ص: ١٠٦.

(٧) سورة الحشر: ٧.

"ومن البدهي أن الثقافة التي تنبع من كتاب الله، والتي تحقق حاجات الإنسان، والتي يطمئن إليها الإنسان ويثق في صحتها، تنشئ أرقى ثقافة عرفتها البشرية، وتقدم أشمل منهج للحياة". (١)

٣ ـ اعتبار محورية عقيدة اليوم الآخر، والحساب والجزاء على الأعمال، ما دق منها وما جل، وأن الدنيا ليست إلا مرحلة من مراحل الوجود الإنساني، ومزرعة للأعمال، {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} ، (٢) {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}. (٣) ومضار ترك الإيمان باليوم الآخر مما قد ظهرت آثاره جلية واضحة في المجتمعات ذات التوجه العلماني المادي بصورة لا لبس فيها ولا خفاء.

٤ ـ اعتبار مفهوم الاستخلاف وعبودية الإنسان لبارئه جل في علاه، ومركزية الإنسان ومحوريته بالنسبة لباقي المخلوقات الأخرى، وإثبات التكريم الرباني له. قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} ، (٤) وقال: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}. (٥)

"لقد كان مولد الإسلام ... إعلانًا جديدًا وأخيرًا لمولد الإنسان الذي أراد له بارئه أن يحمل أعباء الخلافة في الأرض بصدق وإخلاص، ويهب لها ـ برضى وتصميم ـ ما حباه الله به من فكر وعزيمة وعمل؛ بحيث تكون طاقاته كلها في خدمة هذه الغاية السامية، بناءً وتشييدًا، ودعمًا وتأييدًا ورعايةً دائمةً لها، وذودًا صارمًا عنها، ولا يتم ذلك إلا حين تكون هي محور حركته ونشاطه، تملأ عليه وجوده، وتتوهج في ضميره توهج اللهب، وتسري في عروقه سريان الدم. يحياها عقيدة صافية مبرأة من

(١) أضواء على الثقافة الإسلامية، د. نادية شريف العمري، ص: ٢٠.
(٢) سورة البقرة: ١١.
(٣) سورة العنكبوت: ٦٤.
(٤) سورة الأنعام: ١٦٥.
(٥) سورة الإسراء: ٧٠.

نوازع الشك والشرك، والانحراف والرياء، وعبادة خالصة خاشعة، طاعة لله وقربى إليه، وتحليًا بأكرم الأخلاق وأنبل الصفات. وهذه هي العناصر الأساسية التي تجعل منه النموذج الأمثل، الذي يدعو إلى فكرته حالُه، قبل أن يدعو مقالُه". (١)

٥ ـ اعتبار الطبيعة المزدوجة للإنسان، وأنه مكون من روح وجسد: وهذه الحقيقة تمت مناقشتها والتدليل عليها وأهميتها في التنمية المجتمعية الشاملة في هذه الدراسة بشكل مفصل في العديد من المواضع، فلا داع للإعادة هنا.

٦ ـ وحدة الأمة الإسلامية والمحافظة على هويتها: ونعني بالوحدة "وحدة الأمة على كتاب الله، واعتصامها به، وإبعادها عن مواطن الفرقة والاختلاف، وتيه الأفكار فيما لا طائل تحته"، (٢) قال تعالى: { إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ }. (٣)

ولقد وردت في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تدعو المسلمين وتأمرهم بالإجماع والتآلف، وتنهى عن التفرق والاختلاف المؤديين إلى التنازع والفشل، فمن هذه الآيات قوله تعالى: { وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ. (٤)

ومنها قوله تعالى ـفي التحذير من الفرقةـ: { وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ }. (٥)

ومنها قوله عز من قائل: {وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ }. (٦) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنى.

---

(١) لمحات في الثقافة الإسلامية، د. عمر عودة الخطيب، ص: ١٨.
(٢) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير، ص: ١١٤.
(٣) سورة الأنبياء: ٩٢.
(٤) سورة آل عمران: ١٠٣.
(٥) سورة آل عمران: ١٠٥.
(٦) سورة الأنفال: ٤٦.

إن أخطر ما يهدد الأمة الإسلامية هو انسلاخها عن هويتها، وتخليها عن طبيعتها التي تتميز بها، وقد حذر القرآن الكريم الأمة الإسلامية من اتباع من يدعوها إلى الانسلاخ عن طبيعتها بتغيير مبادئها وقيمها الثابتة التي تميزها، فقال: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ} ، (١) وقال -أيضًا-: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ}. (٢)

"ومن البديهي أن وحدة الأمة لا تتم إلا بوحدة اللغة، ولا لغة تجمع المسلمين وتربطهم إلا لغة الدين الذي جعلهم بنعمة الله إخوانًا، وهي العربية التي لم تعد خاصة بالجنس العربي إذا نظرنا إلى الأجناس -المعبر عنهم في اصطلاح المنطق بالأصناف- من جهة أنسابهم وأوطانهم". (٣)

ولقد من الله على العرب بأن أنزل القرآن {بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ}، (٤) "وكانت هذه هذه حكمة إلهية سامية؛ فإن وحدة اللسان العامّ من أهمّ العوامل في وحدة الأمة، خصوصًا أول عهد بالتوثب والنهوض". (٥)

٧ - مركزية اللغة العربية في الثقافة الإسلامية: "إنها لغتنا التي حفظت علينا شخصيتنا عبر التاريخ، وربطت شعوب أمتنا برباطها الوثيق، وقربت بين أمزجة مواطنينا ومشاعرهم، وواءمت بين تقاليدهم وأفكارهم. وهي الحصن الذي لاذ به العرب طوال خمسة عشر قرنًا، فصان كيانهم من أن يتمزق، وحفظ شملهم من أن يتفرق، ووحد كلمتهم على دفع العدوان كلما تعرضوا للعدوان. وهي فوق ذلك كله لغة قرآننا العظيم، ووعاء ديننا القويم، ومستودع حضارتنا الزاهرة، وخزانة تراثنا الروحي والعقلي". (٦)

وهذا هو شأن اللغة مع كل الدول والحضارات.

(١) سورة آل عمران: ١٠٠.
(٢) سورة آل عمران: ١٤٩.
(٣) تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا ج: ١، ص: ٢٥.
(٤) سورة الشعراء: ١٩٥.
(٥) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، الثعالبي، ج: ١، ص: ١٠٥.
(٦) العدوان على العربية عدوان على الإسلام، عبد الرحمن رأفت الباشا، ص: ١٠.

ولقد "أدى الحفظ الكامل للغة العربية بكل قواعد النحو والصرف المتأصلة فيها، واستعمال ملايين البشر المتواصل لها حتى اليوم، إلى إزالة معظم مشكلات التأويل التي تواجه القارئ المعاصر للقرآن بعد أربعة عشر قرنا على تنزله . وبهذا الحفظ ظل تنزيل الأحكام القرآنية على شؤون الحياة الدائمة التغير، متجددا على الدوام، وكذا ترجمة المبادئ القرآنية العامة إلى تشريعات محددة معبرة عن المهام والمشكلات المعاصرة. وبقيت إمكانية إدراك معاني التعبيرات القرآنية، والأسس التي تفهم مضامينها في ضوئها، مماثلة الآن بالتأكيد لما كانت عليه عند نزوله". (١) يقول الثعالبي (٢) في فضلها وبيان أهميتها ومركزيتها في الإسلام: "والعربية خير اللغات والألسنة.والإقبال على تفهمها من الديانة إذ هي أداة العلم، ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد". (٣)

"ومن طريف هذا الباب أن المستشرق الفرنسي آرنست رينانقد حط من الإسلام وتاريخه، وألقى عليه طلال أوهامه العنصرية التي عرف بها في قراءته للتاريخ ونظرته إلى الأمم، غير أنه قال : إن أعظم هبة قدمتها الحضارة الإسلامية إلى العالم هي التوحيد واللغة العربية". (٤)

ولقد تعرضت اللغة العربية في عصرنا الحاضر إلى ألوان من التشويه، وصنوف من التغريب، ومن ذلك: انتشار اللهجات العامية، واشتهار الكتابة

---

(١) التوحيد مضامينه على الفكر والحياة، إسماعيل راجي الفاروقي، ص: ٧٧.

(٢) هو "أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري؛ قال ابن بسام صاحب " الذخيرة " في حقه: " كان في وقته راعي قلعات العلم، وجامع أشتات النثر والنظم، رأس المؤلفين في زمانه، وإمام المصنفين بحكم قرانه، سار ذكره سير المثل، وضربت إليه آباط الإبل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب، وتواليفه أشهر مواضع وأبهر مطالع وأكثر راو لها وجامع، من أن يستوفيها حد أو وصف، أو يوفيها حقوقها نظم أو رصف" وله من التواليف (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) وهو أكبر كتبه وأحسنها وأجمعها، وله أيضًا كتاب (فقه اللغة) و (سحر البلاغة وسر البراعة) ، و (من غاب عنه المطرب) و (مؤنس الوحيد) ، وشيء كثير جمع فيه أشعار الناس وأخبارهم. ولد سنة ٣٥٠ وتوفي ٤٢٩". وفيات الأعيان، ابن خلكان، ج: ٣، ص: ١٧٨.

(٣) فقه اللغة، الثعالبي، ص: ١٥.

(٤) براهين النبوة، سامي عامري، ص: ٤٢٢.

والتأليف بها، وتداولها في الصحافة والإعلام وبرامج ومواقع التواصل الاجتماعي، وكذلك ما اشتهر بين الشباب على صفحات التواصل الاجتماعي من كتابة الألفاظ العربية بالحروف الإنجليزية. كما أن من أخطر ما يهدد اللغة العربية ومركزيتها في نفوس أبنائها تلك المدارس الأجنبية التي انتشرت بصورة تنذر بالخطر، والتي تعمل على تدريس مقررات وأفكار لثقافات أخرى بلغاتها الأصلية، وتعليم الأطفال اللغات الأجنبية قبل أن يحسنوا النطق بالحروف العربية أصلًا، مما يهدد اللغة العربية والثقافة الإسلامية، فينشأ جيل بعيد كل البعد عن أي شيء يمت للثقافة الإسلامية بصلة، مما يضعف الانتماء للأمة الإسلامية.

"ومن هنا يبدو الفرق واضحًا بين الثقافة الإسلامية وغيرها من الثقافات الأخرى، كما يتجلى بوضوح خطأ القول بوحدة الثقافة العالمية، ولو قيل وحدة المعرفة العالمية لكان ذلك مقبولًا، لأن المعرفة تضم المعارف والعلوم العامة التي هي ملك للبشرية كلها. ذلك لأن الثقافات ذاتية وخاصة ومتصلة بأممها لا تنفك عنها، وهي من أجل ذلك لا تنصهر ولا تذوب في بوتقة واحدة، ولكنها تتلاقى وتتعارف ويأخذ بعضها من البعض الآخر ما يزيده قوة، ويرفض بعضها من البعض الآخر ما يضاد وجوده أو يتعارض مع الأصول الأساسية لمقومات فكره وكيانه وذاتيته". (١)

و" الأمم التي تعوزها هذه المرتكزات والأصول لمفاهيمها؛ تحاول أن تعوض هذا النقص الخطير باتخاذ أسلوب الافتراض والتخمين. وقد تلجأ أحيانًا إلى ضروب من المغالطات الخفية، والمرتكزات الوهمية حين تنعدم لديها الحقائق الأصلية، وتفقد قواعد اليقين العلمي الراسخ، وتحاول أن تحيط مفاهيمها الناقصة التي لا تستند إلى أدلة مقبولة بهالةٍ من التمجيد والتزيين تلفت إليها الأنظار؛ فترمقها مبهورة بظواهرها". (٢)

و"ما دمنا مستهدفين كأمة ذات حضارة كانت رائدة العالم لعدة قرون لغزو عسكري واقتصادي وثقافي منظم متواصل، فلا سبيل إلى صده والعمل على

(١) الثقافة، أنور الجندي، ص: ٦.

(٢) لمحات في الثقافة الإسلامية، عمر عودة الخطيب، ص: ١٢.

إبطال مفعوله إلا بمنهج مضاد في مجال العلم والمعرفة ليصبح رائدًا في حيز العمل والسلوك والتعامل مع هذه الحضارة". [١]

"والثمرة المترتبة على ثبات هذه الحقائق في الثقافة الإسلامية ضبط حركة الإنسان، وتقييد تصرفاته ضمن إطار محدد، فلا يخرج عن جادة الهدى، ولا يحيد عن معالم الأخلاق، ولا يتخلى عن الموازين والقيم الإلهية". [٢]

وثمرة أخرى نجنيها من ثبات الحقائق في الثقافة الإسلامية هي "ضبط الفكر الإنساني، فلا يتأرجح مع الشهوات والأهواء والمؤثرات، ولا يندفع وراء حب أو كره عارض. ولا يتأثر من قول شخص قريب أو بعيد، أو حبيب أو بغيض". [٣]

المصادر والمراجع

١. **الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي، دار نهضة مصر - القاهرة - جمهورية مصر العربية، ط١، ٢٠٠٥ م.**

٢. **إسلامنا، سيد سابق، دار الفكر - بيروت - لبنان، ط٢، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢م.**

٣. **إشكالية التحيز رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، أ.د. عبد الوهاب المسيري، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هيرندن - فيرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية، ط٢، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م.**

٤. **أضواء على الثقافة الإسلامية، د. نادية شريف العمري، مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان، ط٩، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م.**

٥. **براهين النبوة والرد على اعتراضات المستشرقين والمنصرين، د. سامي عامري، تكوين - الخبر - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٣٨ هـ / ٢٠١٧ م.**

(١) الثقافة، أنور الجندي، ص: ٦.

(٢) أضواء على الثقافة الإسلامية، نادية شريف العمري، ص: ٢٣.

(٣) خصائص التصور الإسلامي، إبراهيم حسين الشاذلي، ص: ٨٣.

٦. تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، [د.ط.]، ١٩٩٠ م.
٧. التهذيب في فقه الإمام الشافعي، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ط١، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م.
٨. التوحيد: مضامينه على الفكر والحياة، د. إسماعيل راجي الفاروقي، مدارات للأبحاث والنشر، القاهرة - جمهورية مصر العربية، ط٢، ١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م.
٩. الثقافة العربية المعاصرة، د. أنور الجندي، مطبعة الرسالة - القاهرة - جمهورية مصر العربية، ط١، ١٩٦٢.
١٠. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، ط١، [د.ت.].
١١. خصائص التصور الإسلامي، إبراهيم حسين الشاذلي، دار عمار للنشر والتوزيع، القاهرة - جمهورية مصر العربية، ط١، ٢٠٢٠ م.
١٢. رجال الفكر والدعوة في الإسلام، أبو الحسن الحسني الندوي، دار ابن كثير - دمشق - سوريا، ط٣، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م.
١٣. السنة، أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - لبنان، ط١، ١٤٠٨ هـ.
١٤. الطبقات الكبرى، القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء، البصري، البغدادي المعروف بابن سعد، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة - المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤٠٨ هـ.
١٥. ظاهرة رفض السنة وعدم الاحتجاج بها: صالح أحمد رضا، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م.
١٦. عجز الثقات، د. محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء - جدة - المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٩ هـ، ١٩٩٨ م.

١٧. العدوان على العربية عدوان على الإسلام، د. عبد الرحمن رأفت الباشا، دار الأدب الإسلامي، ط١، ١٤١٧ هـ ١٩٩٦ م.
١٨. العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين،، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - لبنان، ط٣، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤ م.
١٩. فقه اللغة وسر العربية، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
٢٠. لمحات في الثقافة الإسلامية، عمر عودة الخطيب، مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان، ط١٥، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤م
٢١. مفاتيح الغيب، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي، دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان، ط٣، ١٤٢٠ هـ.
٢٢. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي، دار صادر - بيروت - لبنان، ط٠، ١٩٠٠.